"المتشائم يرى صعوبة في كل فرصة،

والمتفائل يرى فرصة في كل صعوبة"

- تشرشل -

"الجندي المجهول الذي أصبح
رمز القرن العشرين"

ونستون تشرشل (١٨٧٤-١٩٦٥):

من غرائب القرن العشرين التي تكاد أن لا تحصى، أنه في الوقت الذي كان رئيس الوزراء البريطاني ونستون تشرشل يوقع على أمر بالبدء بإنتاج القنبلة الهيدروجينية، كان ونستون تشرشل الكاتب يفوز بجائزة نوبل للآداب.

ولد ونستون تشرشل في ٣٠ تشرين الثاني ١٨٧٤ في قصر بلاينهام، القصر الشهير القريب من أوكسفورد، مقر حكام مقاطعة مارلبورو، وقد بني في عهد جده السابع، "دوق مارلبورو الأول"، تيمناً بالانتصارات التي حققها عام ١٧٠٤م.

في هذا الجو العابق برائحة التاريخ نشأ هذا الشاب وهناك تعرف على كليمانتين هوزييه وصارا خطيبين. وعندما كتب، فيما بعد، "حياة وأيام جون تشرشل، دوق مارلبورو"، شكلت قاعات ذلك القصر وحدائقه النبع الذي استقى منه تشرشل مصادر كتابه.

كان والده اللورد راندولف تشرشل ووالدته أميركية الأصل تدعى جيني جيروم. توفي والده وهو في السادسة والأربعين من عمره في ظروف مأساوية

أدت إلى تجريده من لقبه، رغم أنه كان قد بدأ حياته السياسية بنجاح عظيم واستطاع أن يتولى منصب وزارة المالية وهو في الثلاثين من العمر.

وهكذا كان على تشرشل الصغير ابن "اللورد" وحفيد الدوق أن يشق طريقه بنفسه وأن يكسب رزقه بقلمه ولسانه، ساعدته في ذلك والدته التي كانت دائما إلى جانبه.

لم تكن حياة تشرشل مماثلة لحياة والده، بل على العكس منها تماما. فهو لم يظهر أي نجاح في المدرسة الثانوية التي دخلها عام ١٨٨٨، حتى إنه لم يتمكن من الوصول أبدا إلى الصفوف العليا؛ إذ كان غير مبال باللغة الإنكليزية وأدبها الكلاسيكي، مفضلا استعمال لغته الخاصة.

ترك تشرشل الثانوية والتحق بالمدرسة الحربية الملكية في ساندهيرست وتخرج منها عام ١٨٩٤ . كانت مهمته الأولى مع الجيش الإسباني في كوبا الذي كان يقاتل الاستقلاليين الكوبيين. ثم أرسل إلى الهند حيث قضى مدة طويلة، كانت كافية لقيامه بنوع من التربية والتثقيف الذاتيين. فقد كانت أمه ترسل له صناديق من الكتب، وكان يطالعها كلها. وقد تأثر بالمؤرخين غيبون وماكولي وبنظرية داروين في النشوء والارتقاء.

– تشرشل على غلاف مجلة تايم –

وفي عام ١٨٩٨ نشر كتابه الأول "قصة قوات سهل مالاكاند"، وكان بمثابة خلاصة تجربته في الهند. نقل بعد ذلك إلى السودان والى جنوب إفريقيا حيث قام بوظيفته كجندي وبعمل آخر هو مراسلة صحيفة مورننغ بوست.

قبل نهاية القرن كانت شهرة تشرشل قد عمت أرجاء العالم الغربي. فقد قامت قوات البوير في أفريقيا الجنوبية باعتقاله، ولكنه تمكن من الفرار عبر جمهورية وسط أفريقيا وعاد مجددا إلى جبهة القتال في الناتال. وقد كتب تشرشل قصة هروبه من المعتقل وعودته إلى الجبهة في كتابين صغيرين، ثم قام بجولة في الولايات المتحدة، ألقى خلالها محاضرات عن هربه. وقد جعلت تلك الجولة اسمه على كل شفة ولسان، كما أن المبلغ الذي جناه من تلك الجولة مكنه من دخول البرلمان (لم يكن أعضاء البرلمان في ذلك الحين يتقاضون أية رواتب).

في ٢٣ كانون الثاني ١٩٠١ انتخب تشرشل عضوا في البرلمان ممثلا حزب المحافظين عن دائرة "اولدهام". ولكن تعاطفه مع قضية الوطنيين الأفريقيين، التي اختبرها عن كثب، واعتراضه على عدد من مشاريع القوانين سرعان ما دفعاه إلى ترك المحافظين والانضمام إلى حزب الأحرار (١٩٠٤).

ومن هناك بدأت رحلته في السياسة، إلى جانب متابعته الكتابة فأول منصب تقلده كان نائب وزير المستعمرات، وقد لعب دورا هاما في إنهاء حرب البوير.

وفي عام ١٩٠٦ نشر كتابا عن سيرة حياة والده "اللورد راندولف تشرشل"، وفي ١٩٠٨ كتاب "رحلتي الأفريقية". وفي السنة نفسها تزوج من الفتاة التي التقاها في طفولته، كليمانتين هوزييه، وقد انجبا صبيا وأربع بنات توفيت إحداهن وهي طفلة.

ساعدته المناصب التي تولاها في بداية حياته السياسية على إدخال تشريعات هامة في مجالات المساعدات الاجتماعية، منها الضمان الصحي وتعويضات البطالة. وفيما بين ١٩١٠ ـ ١٩١٥ ساهم مع وزير البحرية اللورد فيشر في عصرنة الأسطول البريطاني في مواجهة القوة البحرية الهائلة التي أنشأتها ألمانيا.

مع بدء الحرب العالمية الأولى واحتلال الألمان لبلجيكا، قاد تشرشل حملة مضادة، إلا أنها فشلت في تحقيق أهدافها. ولم تكن محاولته احتلال الدردنيل لعزل تركيا عن أوروبا أفضل حالا. وقد أجبر تشرشل على تحمل الفشل في الحالتين. وعندما سقطت حكومة الأحرار وحلت محلها حكومة ائتلافية من الأحرار والمحافظين (١٩١٥)، كان الشرط الأول للمحافظين للقبول بالتحالف هو تجريد تشرشل من منصبه كقائد للقوات البحرية.

- تشرشل مع الملك جورج الخامس والملكة إليزابيت على شرفة قصر بكنغهام -

بدا لتشرشل أن حياته السياسية قد انتهت، فتعلم الرسم، كهواية وكتعزية. ولكنه بقي يمارسه حتى نهاية حياته.

لم يغب تشرشل عن المسرح طويلا؛ إذ سرعان ما دعاه رئيس الوزراء لويد جورج إلى تولي منصب وزير الإمدادات العسكرية (١٩١٦). وبنهاية الحرب صار وزير الدولة لشؤون الحرب والقوات الجوية، حيث عمل على تحديث القوات الجوية البريطانية، وصار هو نفسه طيارا.

سقط تشرشل في انتخابات ١٩٢٢ وابتعد مؤقتا عن السياسة، ثم عاش فترة مضطربة تنقل خلالها بين عضوية حزب المحافظين وحزب الأحرار. كما تسلم

مناصب وزارية عدة، إلا أنه لم يكن سعيدا بالصلاحيات المحدودة التي منحت له فابتعد عن السياسة تماما في الأعوام العشرة ١٩٢٩ ـ ١٩٣٩، وانصرف إلى الكتابة وإلى ممارسة هوايته الجديدة الرسم. ونشر "طفولتي" (١٩٣٠)، "مارلبورو" (٤ أجزاء ١٩٣٣ – ١٩٣٨)، "أفكار ومغامرات" (١٩٣٢)، "معاصرون عظماء" (١٩٣٧).

مع بداية الحرب العالمية الثانية كان لا بد من الاستعانة بتشرشل نظرا لخبرته والجهود التي بذلها لتنظيم القوى البحرية والجوية عندما كان في السلطة. فعين قائدا أعلى للبحرية. ولكن الهجوم الألماني على أوروبا كان سريعا وفعالا. فسقطت بولندا والبلاد المنخفضة وتبعتها فرنسا، دونما مقاومة تذكر.

بحلول العاشر من أيار ١٩٤٠، وفي وسط الكارثة التي كانت آثارها قد بدأت بالظهور اختير تشرشل ليكون الزعيم والقائد الأول لبريطانيا، فتولى منصبي رئاسة الحكومة ووزارة الدفاع على مدى السنوات الخمس التالية.

في البداية كان على بريطانيا أن تحارب وحدها؛ إذ لم يكن من قوة أوروبية قادرة على ذلك. وكان على تشرشل أن يستنهض همم الأوروبيين للقيام بأعمال المقاومة ضد الألمان، وأن يدافع عن حدود بريطانيا نفسها. وكانت مهمته صعبة؛ لأن بريطانيا خسرت العديد من معداتها الحربية إثر احتلال فرنسا وأثناء محاولة إخلاء دنكرك. ولكن تشرشل عمل سريعا على احتضان حركة المقاومة الفرنسية التي قادها ديغول، وعلى صداقته للرئيس الأميركي روزفلت، التي بدأت نتائجها تظهر من خلال تزويد الأوربيين بالسلاح والعتاد أولا ثم في دخول الولايات المتحدة نفسها الحرب وتشكيل ما عرف بقوات الحلفاء.

بعد فترة من نشوب الحرب تولد لدى تشرشل نوع من الاعتقاد بأن ألمانيا لن تجازف بمحاولة احتلال بريطانيا. وقد شجعه ذلك على إرسال واحدة من

الفرقتين العسكريتين الباقيتين في الجزيرة إلى مصر للإمساك بالمعبر الأساسي إلى الشرق الأقصى.

ولكن نقطة التحول في الحرب كانت استفادته من الأخطاء التي ارتكبها أعداؤه. فهجوم ألمانيا على الاتحاد السوفياتي دفع ستالين إلى إعلان الحرب، كما أن الهجوم الياباني على بيرل هاربر، واستغلاله من قبل هتلر لإعلان الحرب على الولايات المتحدة، تركا مجالا ضيقا للاختيار أمام الرئيس الأميركي روزفلت. وهكذا انقسم العالم إلى حلفين كبيرين، ألمانيا وإيطاليا واليابان من جهة، وأميركا والاتحاد السوفياتي وبريطانيا وحكومة فرنسا في المنفى برئاسة ديغول. وكان أن انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة كبرى للحلف الأول، وبانتصار تشوبه عدة شوائب بالنسبة للحلف الثاني.

- الثلاثة الكبار: جوزيف ستالين، فرانكلين روزفلت، ونستون تشرشل -

وقد ظهرت بوادر ذلك في مؤتمري طهران ويالطا اللذين عقدا بحضور روزفلت وتشرشل وستالين وديغول. وفيهما ظهر الخلاف الواضح بين تشرشل الذي أراد الحد من التوسع السوفياتي داخل أوروبا، وبين روزفلت الذي لم يجاره في هذا الأمر. وكانت النتيجة أن الاتحاد السوفياتي صار صاحب نفوذ على معظم دول أوروبا الشرقية.

بعد استسلام ألمانيا، أيار ١٩٤٥، قاد تشرشل مواكب المحتفلين بالنصر في شوارع لندن، إلا أنه ـ كما ورد في أحد كتبه ـ كان يشعر بغصة في القلب لعدم قدرته على الحد من النفوذ الشيوعي داخل أوروبا. وقد تبع ذلك، وفي أقل من شهرين، وحتى قبل استسلام اليابان، سقوط حكومته في انتخابات تموز ١٩٤٥. ومرة أخرى شعر تشرشل بغصة رغم علمه أن نتيجة الانتخاب لم تكن موجهة ضده بمقدار ما كانت تعبيرا عن رغبة البريطانيين بالتجديد بعد عشرين سنة من حكم المحافظين.

- البريطانيون يحيون زعيمهم تشرشل بعد انتصاره في الحرب العالمية الثانية -

بعد تولي حزب العمال الحكم، انصرف تشرشل إلى الكتابة والرسم، فكتب مؤلفه الضخم " الحرب العالمية الثانية (٦ أجزاء ١٩٤٨ ـ ١٩٥٣)، كما عرض لوحاته دوريا في الأكاديمية الملكية.

عاد تشرشل إلى رئاسة الوزارة مجددا عام ١٩٥١ وهو في السابعة والسبعين من العمر، واستمر حتى العام ١٩٥٥، عندما استقال في عيد ميلاده الثمانين في التاسع من نيسان، ولكن ليس قبل أن يحقق أمنيات عزيزة على قلبه. فقد شارك في تتويج الملكة الفتية إليزابيث الثانية (حزيران ١٩٥٣) بصفته "فارساً" (Sir)، ونال جائزة نوبل للآداب في السنة نفسها.

وعلى الرغم من حنكته السياسية ونشاطاته العسكرية اشتهر هذا الزعيم البريطاني بروح النكتة وبإطلاق حركات وشعارات معينة، زال بعضها لأن الزمن قد تجاوزه، مثل إطلاق اسم "الستار الحديدي" على الحالة الأوروبية بعد الحرب العالمية الثانية وانقسام أوروبا إلى شرقية وغربية؛ فيما لا يزال بعضها الآخر مستعملا حتى اليوم كرفع اليد مع فتح السبابة والإصبع الأوسط فيما يعرف بـ "إشارة النصر".

لم ينقطع تشرشل عن ممارسة السياسة بل تابع حضور جلسات مجلس العموم حتى تموز ١٩٦٤، حيث تقاعد إلى أن وافته المنية في ٢٤ كانون الثاني ، ١٩٦٥ وقد أقيم له مأتم رسمي وشعبي ودفن في حديقة الكنيسة الصغيرة التابعة لقصر بلاينهايم.

وقد اختاره البريطانيون أبرز شخصية بريطانية في القرن العشرين.

– تمثال لتشرشل في لندن –